فى بيت حسين مؤنس

– أين نخلة الموز ؟

– أى موز ؟ وأى نخلة ؟

– النخلة التى قلت لى : إنها أمام شباك غرفة النوم وأنه من الممكن إن أمد يدى وأقطف موزة .

كان هذا أول ما قالته « العروس الأجنبية » التى جاء بها حسين مؤنس رأسا من أوربا . إنه أمضى هناك سنوات كثيرة يحضر رسالته للدكتوراه ما بين فرنسا وسويسرا ولم يتعرف على عروسه إلا فى آخر سنة قبل رجوعه إلى مصر . تعرّف عليها فى إحدى محاضرات الموسيقى الكلاسيكية فى جامعة زيوريخ بسويسرا حيث كان – فى أوقات فراغه – يحضر محاضرات الموسيقى التى ظل يحبها إلى آخر أيامه . وكانت هى فى السنة الأولى بالجامعة تدرس الموسيقى الأوربية وكانت أتمت الدراسة بالكنسرفتوار وتجيد العزف على آلتى البيانو والأكورديون . كانت جميلة جدا وصغيرة من أسرة سويسرية محافظة ، وكانت تبدو أصغر من سنها . أما هو فكان يكبرها بأكثر من عشر سنوات ، وكان يبدو أكبر من سنه .

رآها وتعرف عليها وأكّد لنا بعد ذلك أنه أحبها من أول لحظة . واستمر يحضر هذه المحاضرات الإضافية ، وكان ذلك فرصة لكى يزداد التعارف بينهما .

وحدث أن ميعاد عودته لمصر قد قرب فقرر أن يتزوجها .. طلب مقابلة أهلها إذ عرف أنها موافقة مبدئيا . وعندما قابل أهلها صدم بنوع من الرفض .. فكيف تتزوج ابنتهم السويسرية من رجل مصرى ؟ إن ما يفرق بين سويسرا ومصر ليس فقط مسافة البعد ، بل هناك مسافة ثقافية وفكرية وتاريخية ، ثم هناك أيضًا فارق السن بينهما . وقد يكون من المهم أن نضيف أننا عندما نذكر كلمة العنصرية نتذكر على الفور الفرق بين الشرق والغرب ، وننسى عادة أن هناك عنصرية بداخل أوربا نفسها . وفيما يخص تقييم البلاد الأوربية فيما بين بعضها والبعض ، نجد أن السويسريين يؤمنون بأنهم أحسن شعوب القارة الأوربية ، لذلك عندما تقدم هذا الرجل المصرى طالبا ابنتهم كانت دهشتهم كبيرة ؛ وخوفهم أكبر !

وبعد بضع مقابلات وبعد كلام كثير أعجبوا بشخصيته وكلامه ، ولكنهم ظلوا خائفين على ابنتهم ومصيرها مع الرجل المصرى . فاتفقوا على أن يرجع إلى مصر بدون أن يرتبط بابنتهم ثم يعود بعد إتمام سنة حتى يتأكد الجميع أن الموضوع ذو جدية حقيقية ، وحتى يبدأ هو عمله فى جامعة القاهرة ويشعر بنوع من الاستقرار . فمكثت هى فى سويسرا وعاد هو إلى مصر .

* * *

ومضت سنة كانا يتراسلان خلالها . ثم وفى هو بوعده وعاد إلى سويسرا ، ووفى أهلها بدورهم بوعدهم . فتزوجا . وأخذت هى الجنسية المصرية . وتذكر جيدًا أنها – عندما قدمت للسلطات السويسرية الأوراق التى تثبت تغيير جنسيتها – لم يصدقوا ما يحدث وسألوها إن كانت مدركة لما تفعله ، فقالت نعم . وقالوا هل تتركين فعلا جنسيتك السويسرية ؟ وهل تعلمين فعلا أين أنت ذاهبة ؟ قالت نعم . ولم يكن فى تقديرها إلا أنها تريد أن تمضى باقى حياتها مع هذا الرجل أينما كان .

وغادرا زيوريخ بالقطار حتى مرسيليا ، ومن هناك أخذا الباخرة حتى بورسعيد ، ثم استقلا القطار إلى القاهرة . وفى القاهرة ذهبا إلى منزل فى شارع الأخشيد بجزيرة الروضة حيث أنشآ معًا بيت حسين مؤنس . وكان ذلك منذ أكثر من أربعين عامًا .

وعندما وصلا إلى البيت إذا به مليئًا بالأقارب ، حضروا ليرحبوا بهما . وكان ذلك فى ساعة متأخرة من الليل والعروس متعبة جدًا ، فالسفر كان طويلا وإجراءات الجمارك المعقدة أدت إلى أن يتأخر وصولهما إلى المنزل ساعات طوالا ، وفهمت العروس بعد ذلك بوقت طويل أنهم قدموا ليرحبوا بهما غير أن هذا لم يكن السبب الوحيد ، إنما كانوا أيضا ينتظرون الهدايا .. ولم تكن تعرف فى هذا الوقت أنه كان من العادة – بل من الواجب – أن يجىء القادم من السفر بهدية لكل قريب . وهى لم تأت بشىء

لأنها لم تكن تعلم هذا التقليد . أما أبى فكان قد نسى موضوع الهدايا تماما . وكانت هذه هى عادته التى لازمته طوال حياته : حتى نحن أبناءه كنا نعلم صفة النسيان بسبب اشتغال فكره بأشياء أهم من أمر الهدايا ، فكنا نسجل له كتابةً فى عدد من الأوراق ما نحن بحاجة إليه حتى نذكره بما نريد حتى يحضره لنا . ومع ذلك كثيرًا ما كان ينسى ما نطلبه ، فإذا عاتبناه قال إن كل شىء يمكن أن يشترى حيث نقيم ، بغير أن يفطن إلى أن هدية القادم من السفر لها طعمها الخاص . لم يكن سلوكه هذا عن تقتير أو استكثار لما نطلب ، فالحقيقة أننا إذا كلفناه بإحضار دواء لازم لأحد أو كتاب مهم ، فإنه لا ينسى ذلك أبدًا . أما ما جرت به العادة من إحضار تذكارات فإنه لم يكن يرى فى ذلك شيئًا مهما لا غنى عنه .

* * *

وكانت أمى تتحدث الألمانية وتجيد الفرنسية .. ولكنها لم تعرف كلمة عربية واحدة .. وكان يعيش معهما فى نفس البيت جدتى – وهى لا تتكلم إلا العربية – ثم عمتاى وكانت إحداهما تدرس بكلية الآداب والأخرى لم تحصل على شهادة الثانوية بعد . وأدى تعايش أمى داخل هذا المحيط المصرى مع أفراد عائلة أبى إلى أن تتعلم اللغة العربية . وهكذا حدث فتعلمتها وأصبحت تجيد الكلام

بها فيما بعد . وبقيت اللغة العربية هى اللغة الوحيدة السائدة فى هذا البيت سواء أكانا مقيمين فى مصر أو فى سفر خارج البلاد . وأضفى توحد اللغة هذا على البيت سمة مميزة . وكثيرًا ما كانت أمى على مرور الزمن تلتقى بأناس مصريين يحاولون التحدث إليها بلغة أجنبية ظنًا منهم أن ذلك سيجعل الحوار أسهل بالنسبة لها ، إلا أنها كانت ترد دائما بالعربية حتى تثبت لهم ، أنها تجيدها وأنها أصبحت لغتها الجارية .

ومن طرائف السنة الأولى للزواج - على سبيل المثال - أن أمى كانت تخشى أكل اللحوم إذ قيل لها فى سويسرا إنهم فى مصر يأكلون الفئران فعندما كانت ترى في طبقها قطعًا من اللحم تتصور أنها أجزاء من فئران فلا تستطيع أن تأكلها . غير أنها أدركت بعد فترة قصيرة خطأ ذلك التصور واعتادت أكل ما يقدم إليها مطمئنة إليه .

كانت هناك سيدات من أقارب العائلة يلاحظن أنها نحيفة ويعتبرن ذلك عيبًا في المرأة ولا يدركن أن تلك النحافة تعد من سمات الجمال فى أوربا . فكن ينصحنها بالاستكثار من أكل ما يساعدها على زيادة الوزن مثل سد الحنك . وفى إحدى المناسبات نصحتها إحدى السيدات بأن تضع على « الكومودينو » إلى جانب سريرها « بطاطة » وكوبًا من اللبن ، وأن تأكل وتشرب منهما ، كلما استيقظت أثناء الليل . وأرشدتها سيدة أخرى إلى أن تصلى كثيرا

حتى يستجيب لها الله سبحانه وتعالى حتى يزيد جسمها امتلاء . ولم تقتنع أمى بهذه النصائح فكانت تستمع إليها وتقول « حاضر يا طنط » وظلت على حالها رشيقة طوال عمرها ، فكانت قد نشأت وتربت على فكرة أن الرشاقة هى أساس الصحة ، ثم إنها سمة من سمات الجمال فى المرأة . أما الأقارب المصريات فكن يرين الجمال فى السمنة التى كانت أيضا بالنسبة لهن دالة على الانتماء إلى طبقة اجتماعية مرفهة أما النحافة فإنها كانت دليلا على الجوع والفقر .

ثم طرأت فى البيت فكرة إسلام أمى ، وأبدت هى موافقتها على ذلك ، ولكنها لم تكن تتكلم اللغة العربية إلا قليلا . كانت تفهم بعض الكلام ولكنها لا تستطيع تركيب جمل كاملة . فحفظها أبى الشهادة . ثم جاء اليوم الذى كانت ستشهر فيه إسلامها . وكان من المقرر أن يتم ذلك فى الأزهر الشريف ، فذهب كل من أبى وأمى وجدتى وشاهدان فى الميعاد المحدد ، وكانت أمى تكرر عبارة الشهادة بينها وبين نفسها حتى لا تخطئ فيها . ووصلوا إلى المكان المحدد وبدأ شيخ أزهرى يتكلم باللغة العربية الفصحى . وبطبيعة الحال لم تفهم أمى كلمة واحدة مما قال ، وكان كل همها – حسب كلامها – فى تذكر الشهادة فى الوقت الذى كان عليها أن تدلى فيه بتلك العبارة . وجاءت اللحظة المهمة ولكن أمى لم تعلم بها إذ أنها لم تفهم كلمة واحدة مما قاله هذا الشيخ الأزهرى فلاحظت أن أبى يشير إليها بهدوء فانطلقت

بالشهادة وبهذا تم إسلامها . وعندما سألتها بعد ذلك بسنوات : ما الذى جعلك تسلمين فى هذا الوقت المبكر من الزواج ؟ فقالت : إننى كنت سأسلم فى يوم ما فأنا أؤمن بأن الرب واحد بالنسبة لجميع الأديان والفارق الوحيد بين الأديان ، عموما هى طريقة العبادة ، فجميع الأديان جيدة مادام الإنسان نفسه جيدا ومؤمنًا .

وفكرة أن دين الإنسان مسألة شخصية ترجع لكل فرد على حدة كانت من سمات بيتنا ، فالدين لم يكن أبدًا من موضوعات مناقشاتنا . فقد عرفنا ناسًا كثيرين ولم يخطر ببالنا أبدًا أن نسألهم إلى أى دين ينتمون . فنحن عشنا فى إسبانيا أكثر من عشر سنوات ، وكان معظم أصدقائنا ومعارفنا من الإسبان ، وكان كل ما يهمنا هو الشخص ذاته ، أما دينه أو حالته الاجتماعية أو المالية أو ميوله السياسية ، فهذه كلها كانت أشياء لا تحتل مكانا من تفكيرنا أو اهتمامنا .

وجاء أول رمضان تقضيه أمى فى البيت فى مصر ، وكانت الأسرة كلها تؤدى هذا الفرض ، وكذلك صامت أمى . ولكنها كانت كلما شعرت بجوع حاد دخلت إلى غرفتها وأكلت قطعة من الشيكولاته ، فلم تكن تعلم أن ذلك يخالف تعاليم الإسلام . وكان لديهم فى البيت خادمة صغيرة السن لاحظت أن « الست الصغيرة » كثيرًا ما تدخل غرفتها خلال النهار بدون مبرر واضح .

فذهبت الفتاة ونظرت من ثقب الباب واكتشفت ما يحدث . فذهبت إلى « الست الكبيرة » — وهى جدتى — وقالت لها ما يحدث ، وعولجت الأمور بهدوء إذ أفهموا أمى جميع متطلبات شهر رمضان الكريم .

* * *

كان أبى طوال عمره رجلا مشغولا بعمله ، لأن مسئولياته كانت دائما كثيرة . وكان ذلك هو وضعه فى السنة الأولى من زواجه فلم يكونوا يرونه فى البيت إلا وقت الغداء ثم فى المساء . وكان قد تعوّد منذ ذلك الحين أن يفرغ نفسه تماما يوما واحدًا فى الأسبوع ، وهو فى العادة بعد ظهر يوم الخميس ، فكان فى هذا اليوم يخرج مع العائلة وغالبا ما يذهبون إلى السينما فى وسط البلد ثم يتناولون الشاى والحلويات فى أحد الأماكن العامة ثم يعودون للبيت . وحسب ما سمعت بعد ذلك كانت هذه عادة متبعة فى كثير من البيوت المصرية . المهم فى هذا الأمر أن أبى استمر بهذه العادة حتى بعد سفره من مصر إلى الخارج . ففى إسبانيا كان اليوم الذى يقضيه مع أمى خارج البيت هو يوم السبت ، ولم يقبل أى ميعاد أو ارتباط فى هذا اليوم أبدًا فكان يرى أن هذا اليوم من حق أمى عليه ويجب أن يخرج فيه معها . أما ما عدا هذا اليوم فكان دائما مشغولا بالقراءة أو الكتابة أو الحديث مع أحد فى أمور العمل ، فهو لم يعتبر هذا العمل واجبًا فحسب ، بل كان يجد فيه متعة حقيقية .

ومرت سنة كاملة على الزواج ولم تحمل أمي ، وفى الحقيقة فهى لم تفكر فى هذا الموضوع إذ أنه كان سيأتى فى يوم من الأيام بطبيعة الأمر . فبدأ بعض أقارب العائلة يتحدثون معها فى هذا الموضوع ويقولون لها « يجب أن تشدى حيلك وتخلفى حتى لا يتركك زوجك » . فكان هذا طبعا كلاما غريبا عليها تماما ولم تفهمه بمنطقها الأوربى . وحدث أنها حملت بعد ذلك وأنجبت وعند تسميتها قالت أمى إن ما يهمها فى أمر تسمية ابنتها هو أن يختاروا لها اسما يعجبها تعرف أن تنطقه . فبعد كلام كثير استقر الاسم على « منى » . وكان بيت أبى قد انتقل خلال هذه الفترة من شارع الإخشيد بالروضه إلى ميدان الروضة إذ كانوا فى حاجة إلى شقة أوسع تمكن أبى من أن يكون له فيها غرفة مكتب .

وانتقل بيت أبى من مكان إلى مكان آخر عدة مرات إذ نقل إلى العاصمة الإسبانية – مدريد – حيث عمل مديرًا لمعهد الدراسات الإسلامية منذ منتصف الخمسينيات إلى أواخر الستينيات . ثم انتقل البيت مرة أخرى من أسبانيا إلى الكويت حيث عمل أستاذًا للتاريخ الإسلامى فى جامعة الكويت إلى منتصف السبعينيات . ثم انتقل البيت مرة أخرى إلى القاهرة ، وعمل بعد عودته إلى مصر رئيسا لتحرير مجلة الهلال ورواية الهلال وكتاب الهلال ؛ ثم أنشئت مجلة أكتوبر حيث انضم لأسرتها منذ ١٩٨٠ ، وكان يعمل فى نفس الوقت أستاذا غير متفرغ فى قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة حتى وفاته فى ١٧ مارس ١٩٩٦ .

والسمة أو السمات التى أعطت بيته دائما وحدته هى اجتماع أفراد العائلة أى هو وأمى وأنا وأخى صفوان رحمه الله – ثم الطابع المصرى فى عاداته بالإضافة إلى لغة الحوار التى كانت دائما اللغة العربية ثم كانت هناك دائما لمسة لا أعرف كيف أصفها .. تضفيها أمى على البيت ..

° ° °

وعندما سألت أمى بعد سنين طويلة هل كانت سعيدة خلال سنة زواجها الأولى . أجابت بأنها كانت عموما سنة جميلة مليئة بما هو جديد عليها ، وأنها مرت بخير وفى سلام ، لأنها كانت دائما ترضى بكل شىء فنادرًا ما تحتج أو ترفض شيئًا فأهم ما كان يدور ببالها هو أن ينجح زواجها ، وأن تستمر مع الرجل الذى أحبته .. ثم إنها كانت ترى وتشعر أن وجودها أصبح مهما بالنسبة له ، وأنه كان يقوم بكل ما يمكن أن يرضيها ويريحها ؛ وكان أبى فى الحقيقة يظهر لها اهتمامه بها دائما ، وكان – على سبيل المثال – عندما يدخل أى مكان توجد فيه أمى كان يسلم عليها قبل أن يسلم على الغرباء . وكثيرا ما كان يقول خلال حياته : إنه لو كان وصل إلى شىء فى عمله فبعض الفضل فى ذلك يرجع إلى أمى ، فمن أجلها حاول دائما أن يرفع من شأن نفسه حتى لا تشعر هى أبدا بأنها نادمة على ترك بلدها سويسرا ، أما باقى الفضل فيرجع إلى حبه لمصر .

وكان أبى يحتل بالنسبة لأمى المقام الأول فى حياتها وبعد أبى كنا نأتى نحن أولادها ، فكانت تهتم براحته وملابسه ومواعيده وتذكره بما قد ينساه – وبطبيعة الحال – ساعده ذلك كثيرًا فى أن يتقدم فى قراءاته وكتاباته ، إذ كان يرى لديه زوجة يثق فيها ويطمئن إليها ويعتمد عليها ويحس بأنها هى التى تمنح حياته جوًا من الطمأنينة والاستقرار ، وكان دائما يشكرها على ذلك ولا يتقبله على أنه أمر واقع . وأنا هنا لا أصطنع علاقة رومانسية بين أبى وأمى ، بل إننى أتحدث عن وقائع شاهدتها وشاهدها كل من تعرف عليهما وعاملهما .

وقد يتساءل البعض ألم تكن تقع خلافات فى مثل هذه الزيجة ؟ والرد هو أنه طبعا كانت تقع خلافات ، ولكنها أشياء عابرة لا توقف استمرار العلاقة . فعلى سبيل المثال لم يتذكر أبى مرة واحدة فى حياته يوم عيد ميلاد أمى ولا يوم زواجهما . وكانت أمى كل سنة تغضب من نسيانه هذا ولم تتقبله أبدا غير أن هذا الغضب كان عارضا لا يدوم ، إذ أنه دائما كان يعتذر لها عن ذلك السهو .

وكانت هناك خلافات بالنسبة للنفقات . فكانت أمى لا تبخل بأى شىء يزيد من جمال بيتها ، وكان هو دائما يرى أنها تبالغ فى ذلك . وأعتقد أنه بمرور الزمن اقتنع بأنها على حق ، فأصبح يفرح عندما كان يراها مهتمة بالمكان ومظهره .

وكانت تنشأ خلافات أيضًا بسبب إنفاق أمى على ملابسها

بشكل كان يراه هو مبالغا فيه . ولكنها كانت طول عمرها تهتم بمظهرها كثيرًا وتحب الملابس الجميلة الهادئة وتحب أن يجاملها الناس على مظهرها . ولست أذكر أنني مرة فى حياتى رأيت أمى وهى ترتدى ملبسًا لا يتميز بالأناقة ، أو كان شعرها غير مُسَرح : لم يحدث هذا أبدًا فى أى وقت من النهار .

ثم إن أبى عندما كنت أسأله عن أهم صفة يفضلها فى المرأة ، فكان يجيب « أن تكون جميلة ، فيجب على الرجل أن يرى أمامه شيئًا يعجبه . وبعد الجمال يأتى الحنان ، فيجب أن تكون امرأة كاملة الأناقة والأنوثة فى مظهرها وفى كيانها » . وعندما كنت أسأله عن جمال روح المرأة كان ينظر إلى ويبتسم ويقول : « إنه من الصعب أن توجد روح جميلة فى امرأة عندما تشعر وتعرف أن مظهرها غير مقبول » .

وعندما كان النقاش يثور فى المسائل المالية كانت تقول له : « شوف ، أنت لذتك فى قراءاتك وكتاباتك أما أنا فلذتى فى بيتى وملابسى » . وهذه كانت حقيقة فلم يكن لأمى مجموعة صديقات تزورهن ويزرنها ، ولم تكن تتغيب عن البيت إلا لأمر مهم ، فحياتها كلها كانت مكرسة لزوجها أولا ثم لأولادها وبيتها ، ومن المؤكد أن ذلك كان يريحه كثيرا . وقد استمر هذا الوضع طوال زواجهما سواء كانا فى مصر أو فى أسبانيا أو فى الكويت وهى البلدان الثلاثة التى قضينا فيها معظم سنوات حياتنا .

وهناك مصدر خلافات آخر .. ربما كان الطعام .. فقد كان

هو يحب الطعام المصرى ، وكانت هى تحب الأطباق الأوروبية ، فهى لا تأكل البامية ولا القلقاس ولا الحمام (كيف يأكل إنسان الحمام ؟ كان شيئا لا تفهمه) . وبعض المأكولات المصرية الأخرى ، ومع ذلك فقد تأكل بعض هذه الألوان لكى ترضيه . فاتفقنا على أن بعض أيام الأسبوع يكون الأكل فيه أوروبيا وبعضه الآخر يكون مصريا .

وفيما يخص الأكل عموما فلم يكن أبى نهما فى الطعام فكان إفطاره خفيفا يحتوى على عصير فاكهة ثم بسكوت ثم شاى يحليه بالعسل . ثم وجبة الغداء كانت دائما كاملة إذ كانت وجبة أكله الأساسية ، أما العشاء فكان دائما خفيفا وبه دائما فاكهة ما .

ولم تكن أمى بطبيعتها تحب الطهى ، فخلال فترات طويلة من حياتنا كان لدينا من يقوم بالطهى فى البيت ، وفى فترات أخرى كانت تطبخ هى وتقوم بالواجب من هذه الناحية ، فقد كانت تعتبر المطبخ واجبا بالنسبة لها ولم تمض فيه أى وقت غير الوقت المطلوب ، فالقيام بالواجب ، والشعور بالمسئولية صفتان متأصلتان لدى الشعب السويسرى ، وكانت أمى ملتزمة بهما إلى حد بعيد فلم تخل بواجب أبدًا ولا تعرف تأجيل ما يجب عليها عمله أو تجنبه . فالواجب ينبغى أن يتم وبإتقان . كانت – ومازالت – هذه هى طريقتها فى الحياة فهى لا تعرف الكسل ؛ وليس لديها مزاج متقلب ، فمن الممكن الاعتماد عليها تماما ، إذ كل شىء

يتم حسب جدول أعمال تضعه هى لنفسها ولا تدع لإنسان أن يتدخل فيه .

هناك صفة أخرى فى أمى كان أبى يقدرها جدًّا وهى أنها لا تعرف الكذب أبدا فلا تقول إلا الحقيقة وكانت تحكى له كل صغيرة وكبيرة تحدث فى البيت . وكانت هذه الصراحة تساعده لكى يتصرف فى شئون البيت وبالذات فى الفترات الصعبة التى قد تطرأ فيها مشكلات . فكانت الصورة دائما أمامه واضحة ، وكان يعلم تماما أنه ليس هناك ما تخفيه عنه .

هذه الخلافات لا أتذكر أنها كانت تطول ، فكانت من النوع العابر ، أى أنها كانت لا تتسبب فى أزمات حقيقية والحمد لله . كان الاثنان قد اتفقا فى بداية حياتهما معا ألا يبيتا على خلاف أبدًا ، فكان يجب أن يتم الصلح بينهما قبل نهاية النهار ، وكان غالبا يقدم هو عليه . وكانت هذه هى طريقته معى ومع أخى أيضا ، فعندما كان يقع خلاف بينه وبين أحدنا كان غالبا هو الذى يأتى « لنناقش الموضوع » ونصل لاتفاق يريح الطرفين .

أتذكر بهذه المناسبة على سبيل المثال أننا كنا فى أسبانيا وكانت سنى حوالى أربعة عشر عاما وكنت تلميذة بالمدرسة الألمانية . وحدث أن بدأت بعض زميلاتى يرتدين الجوارب « النايلون » بدلا من الجوارب القصيرة المخصصة للمدارس ، فلاحظت ذلك وعدت مرة إلى البيت وقلت لأمى إننى أريد أنا الأخرى أن أرتدى

الجورب النسائى الشفاف . فاندهشت وقالت إن ذلك لن يحدث قبل سن السادسة عشرة على الأقل ، فعُرض الموضوع على أبى فازعج جدًّا وقال : إننى مازلت صغيرة وإنه يجب ألا أفكر فى شىء إلا المذاكرة وأن ذلك لن يتم إلا بعد إنهاء التعليم المدرسى !!

وكنت حينذاك فى أشد التعاسة ، فأنا لم أفكر فى الجورب الشفاف فقط ، بل كنت أفكر أيضًا فى الذهاب إلى « الكوافير » واستعمال أحمر الشفاه . وكانت اقتراحاتى هذه تغضبه غضبًا شديدًا ويذكرنى فى هذه الأوقات وأثناء مناقشاتنا الطويلة بأننا مصريون وأننا نختلف فى عاداتنا وتقاليدنا عن الأوربيين ويجب أن أنظر إلى مستقبلى وإلى مذاكرتى وأن أنسى هذه التفاهات حتى أستمر بأخلاق مصرية جميلة ، وأتذكر أن أمى لم تتدخل فى مثل هذه المواضيع أبدًا ، فرأى أبى كان هو الصحيح دائما بالنسبة لها . وبعد مناقشات طويلة وافق على ارتدائى الجورب النسائى وأنا فى سن الخامسة عشرة ولكنه – فى نفس الوقت – بدأ يراقبنى أكثر ولا يتساهل فى أى طلب أطلبه ، وكان شديدًا جدًّا فى تربيته ، وكانت شدة لاحظها كل من حولنا .

وكنت أندهش وأتالم جدًّا لهذه الشدة بالذات عندما كنت أتذكر أن نفس هذا الأب كان – وأنا طفلة – يقوم من مكتبه وينزل ليتنزه معى فى الشارع ويشجعنى على قراءة كل ما هو مكتوب على اللافتات ، وهو أيضًا الذى كان يحكى لى قصة قبل نومى ، وكانت قصصًا مسلسلة من تأليفه فكان يؤلفها وهو جالس

على طرف السرير ، وكان هو نفس الأب الذى كان يجبرنى بطريقة غير مباشرة على القيام بما لا أحبه . فكنا مثلا مرة مسافرين على باخرة إلى أمريكا . وكانت أمى تعانى من دوار البحر وأنا لا أريد أن أنام مبكرًا حتى أريحها . فكان هو يأخذنى عند محرك الباخرة ويقول :

– هل تسمعين هذا الصوت ؟ (وكان دوى الماكينات ضخمًا مفزعًا)

– نعم . أسمعه .

– هذا صوت سبع كبير وهو الآن غاضب لأنه يعلم أن بعض الأطفال لم يناموا حتى الآن . فلو استمروا على عدم النوم فى ميعادهم فسوف يشتد غضبه وسوف يخرج من قفصه هذا ليعاقبهم .

ومنذ ذلك اليوم بدأت أنام فى ميعاد مبكر ولكن قبل نومى كان يجب على أبى أن يذهب معى حيث يوجد « الأسد » ونسلم عليه حتى لا يغضب . وبعد انتهاء الرحلة وبعد مرور بعض الوقت عليها كنت كثيرا أسأله : « يا ترى ما أخبار « الأسد » ؟ كان يرد ويقول : « إنه أحيانا يتصل بى بالتليفون ويقول إنه على ما يرام . ويسلم عليك ويقول إنه يتابع أخبارك عن بعد وأنه مسرور منك » .